

المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي

: دراسة في سيولوجيا المعرفة

د. عاطف أحمد فؤاد *

مقدمة :

من المتفق عليه أن المتتبع لتاريخ المجتمع المصري في اواخر القرن الثامن عشر واولئل القرن التاسع عشر يستطيع أن يستقرا عدة حقائق لعل من اهمها ان هذه الحقبة قد شهدت عدة ظواهر من ابرزها ذلك الوهن السذي اصاب الحكم العثماني وضعف سيطرته على المجتمع المصري ، ثم محاولة الممالك الاستقلال بمصر وهو الامر الذي اصابوا فيه نجاحا لا ينكر . الا ان هذه النجاح لم يكتب له الاستمرار نظرا لطبيعة العلاقة القائمة بين جماعات الممالك ، تلك العلاقة التي اتسمت بالصراع ومحاولة استئثار كل فريق بالسلطة . ولم يكن صراع جماعات الممالك هذا الا نذيرا بتدخل القوى الاجنبية . ولعل في الحملتين الفرنسية والانجليزية خير شاهد على ما نذهب اليه .

وتعد تلك الحقبة التي تجلى فيها حكم محمد على من اخصب الحقب التي زخرت بالحوادث وشهدت عدة وقائع كان لها تأثير كبير في تسيير مجريات الامور في المجتمع المصري فيما بعد .

ولم يكن الانسان المصري وسط هذه الحوادث الا ضحية تلك الصراعات ، فهو حائر بين جماعات كثيرة تحاول الاستئثار بالسلطة وشرافهم لم يكن مهما الا السيطرة على الحكم ، وهو بين هذه وتلك لا يملك الا السخريه من الحاكم ، والتهكم عليه ، وهي سخريه الخائف وتهكم المظلوم .

وبين الخوف والظلم يظهر مؤرخنا المصري عبد الرحمن الجبرتي ذلك المؤرخ الذي تعود قيمته الى كونه اول من عمل على احياء حركة التأليف التاريخي في مصر بعد ابن اياس (١) مسجلا وقائع تلك الحقبة ، معلنا عن موقف واضح من السلطة ، متخذا من احداث العصر ، مواقف وان اتسقت في عمومها ، الا انها قد يبدو عليها التناقض احيانا ، ويتجلى هذا التناقض في تلك المواقف التي اتخذها من الانسان المصري ، فهو متعاطف معه ، اشد ما يكون التعاطف ، ساخر منه اشد ما تكون السخريه .

* استاذ الاجتماع بكلية النبات في جامعة الازهر

ولعل في تارجح الجبرتي في موقفه من الانسان المصري بين التعاطف والسخرية ما يبرر لنا الكشف عن موقف الجبرتي من بعض قضايا عصره والتي سوف تكشف بدورها عن رؤياه الاجتماعية والسياسية من القضيتين الاتيتين :

اولا : الجبرتي والسلطة الحاكمة .

ثانيا : الجبرتي والثورة .

واعتمادا على ما تقدمه لنا مناهج البحث في علم اجتماع المعرفة من مناهج وطرائق ، لعل في مقدمتها طريقة الفرو أو رد الشيء الى اصوله ثم فكرة العوامل الاجتماعية الوجودية ، واخيرا الطريقة الخاصة باقتفاء الاثر من الزاوية السيوثقافية ، فانه ينبغي اولا أن نشير الى طبيعة البناء الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المصري في الفترة التي عايشها عبد الرحمن الجبرتي ، ثم يشير الى تلك الظروف الخاصة التي صاحبت نشأته من الصغر وحتى مرحلة النمو ثم تلك المرحلة التي بدأ يمارس فيها حياته العامة حتى يكون حكمنا على تصورات ورؤاه حكما موضوعيا في اطار ظروفه الخاصة وظروف مجتمعه الذي نشأ في احضانه .

فالملاحظ المدقق لفترة ما قبل الحملة الفرنسية او للعصر التركي المملوكي يرى أن المجتمع المصري منذ غزاه العثمانيون يسير من سوء الى اسوأ ، فالارض ملك للسلطان يوزعها كما شاء على حظوته ومريديه . كما أن المجتمع يتميز بوجه عام بالطبقية الصارخة ، فهو يتكون من قوى فوقية واخرى تحتية « او بعبارة اخرى اقلية ارسقراطية واكثرية من العاملين في الارض في القرى او من المشتغلين بالحرف الصناعية في المدن . وكانت الاقلية او القوى الفوقية تتألف من الاتراك ، العثمانيين وبكوات الممالك ، في حين كانت تتألف القوى التحتية من الفلاحين والصناع من ابناء العرب من المغلوبين على امرهم والمحرومين من كل شيء والذين وقعت عليهم مغارم الحكم ، في الوقت الذي استحوذت عليه الاقلية صاحبة الامتيازات على مغائمه (٦) .

ولم يكن العثمانيون والممالك الا « . . . سادة فاتحين ، لهم حق الاستغلال ولهم حق الانتفاع ، وعلى المحكومين من اهل البلاد ان يشقوا ويكسوا ليقدموا ثمرة كدهم صاغرین لأولئك السادة المستبدین ، ثم ان العثمانيين حكموا مصر بوصفهم ارسقراطية حاكمة ، لا يعنيهم ان يتدخلوا في شئون البلاد الا بالقدر الذي يحق لهم اكبر قسط من استغلال مواردها ، ولذلك ظلوا بعيدين عن

الاختلاط بالمصريين ، اذا نظروا اليهم فانما ينظرون شذرا ، واذا خاطبوهم أو عاملوهم ، فانما يخاطبونهم لجمع المال ويعاملونهم لامتناسص أقصى ما يمكن امتناسصه من ثرواتهم وخيرات بلادهم « (٣)

ولعل العلاقة الوحيدة التي كانت قائمة بين الحاكم والمحكوم أو بين الشعب المصري آنذاك وحكامه علاقة تنهض في واقع الامر على جمع الضرائب من جهة ، وعلى الحذر وعدم الثقة والاحتقار المتبادل من جهة أخرى ، الامر الذي انعكس على الوضع الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المصري آنذاك . ومما يؤكد هذا ما يشير اليه عبد الرحمن الجبرتي حيث يروي لنا سنة اثنتين ومائتين وألف ، وفي الخامس منه « طلب اسماعيل بك دراهم فرضه مبلغا كبيرا فوزعوا منها جانبا على تجار البن والبحار وجانبا على الذين يقرضون البن بالمراوحة للمضطرين ، وجانبا على نصارى القبط والاروام والشوام وعلى طوائف المغاربة بطولون والغورية وعلى المتسبيين في الغلال بالسواحل والرقع ، وكذلك بياعو القطن والبطانة والقماش والمنجدون واليهود وغيرهم ، فانزعج الناس وأغلقوا وكاثل البن والغورية ودكاكين الميداني (٤)

نلاحظ من ذلك أن الضرائب كانت تفرض جزافا وفي أي وقت ولاي سبب ، وان هناك طوائف معينة كانت تتحمل عبء هذه الضرائب وحدها دون غيرها وهي الطبقات الفقيرة في المجتمع كالفلاحين وصغار التجار والحرفيين وغيرهم .

واذا كانت الحملة الفرنسية تعد أول اطلالة حقيقية على الثقافة الغربية باعتبارها أول احتكاك مباشر بين المجتمع المصري وبين الحضارة الأوروبية الغربية الحديثة ، الا انها لم تحدث تغييرات جذرية للبناء الاجتماعي الاقتصادي للمجتمع المصري رغم تلك المشروعات التي اضطلع بها الفرنسيون أيام نابليون ومن خلفه في مصر كمشروع **كفاريللي** للإصلاح الزراعي ومشروع **مينو** لإصلاح نظام ملكية الارض .

والواقع أن معظم هذه المشروعات لم تنفذ بل ان حال الفلاحين في القرى والحرفيين وصغار التجار في المدن ازدادت سوءا نظرا للضرائب الباهظة التي كان يفرضها الفرنسيون بشكل لافئ دون تمييز ، ودون الاخذ في الاعتبار الظروف الاقتصادية التي كان يحياها فقراء الشعب المصري .

أما عن عصر محمد علي فهو من العصور التي كانت ولا تزال نشر كثيرا من الجدل واختلاف وجهات النظر ، ولا سيما عند المقابلة بين المنجزات المادية التي حققها هذا العصر ، وبين انعكاس هذه المنجزات على طبقات الشعب وفئاته وخاصة في احساس هذا الشعب بالعدالة والحرية .

الذى محمد علي نظام الالتزام وهو من أسوا الانظمة الزراعية التي عرفتھا مصر ، ودمر بذلك هذه الطبقة القديمة التي كانت تسيطر على الاراضي وتستغلھا في ظل هذا النظام ، « » ومهد الطريق لظهور طبقة جديدة من الملاك . ولكي يوفر التوازن لحكمه اخذ يجرب اشكالا عديدة من حيازة الارض الغرض منها جميعا زيادة دخله . وقد نشأت الضياع الخاصة الكبيرة ونمت ، وهي احدى السمات المميزة لمصر الحديثة في عصره » . (٥)

ومن ناحية أخرى ، يحمل البعض ل محمد علي انه وزع بعض الاراضي على الفلاحين . الا ان هذا التوزيع لم يكن يعني في واقع الامر تملیكا ، حيث لم يتمتع مالكو الارض الا بحق الانتفاع بها فلم يكن لهم حق بيعھا او التصرف فیھا . والحقیقة ان ما وزعه محمد علي من اراض على الفلاحين وهب في مقابله آلاف الافدنة الى اقاربه واتباعه على نحو ما يذهب شارل عيسوي (٦) . ولقد خلق محمد علي بذلك طبقة مالكة من عائلته ومحاسبيه ومعاونيه « الذين يهللون لكل ما يقوم به الباشا ، وفي احيان كثيرة كانوا مغامرین يلتمسون تحقيق مصالحهم الخاصة وزيادة مكاسبهم الشخصية بدهائنته وتغذية اوھام القوة التي تجول بخاطرھ ويشجعونه على القيام بأعمال جديدة لا تحتلھا طاقته ولا تعود على البلاد بأي نفع . » (٧)

معنى ذلك انه تربيع على قمة البناء الطبقي للمجتمع المصري آنذاك كل من محمد علي واسرته وكبار معاونيه من الاتراك وغيرهم ، فضلا عن كبار الاعيان والضباط . وفي قاع هذا البناء نجد الفلاحين والحرفيين وصغار التجار الذين عانوا الامرين . ولنا في حال الفلاحين خير شاهد على ما نذهب اليه ، اذ انه على الرغم من تخلص الفلاح من المالك والمقرمين ، الا انه لم يجر اي تحسين في حياته فهو « مرتبط بقطعة ارضه كما كان في عهد المالك ، وكان يوجب عليه ان يعمل ٦٠ يوما من كل عام سخرة في اراضي محمد علي واتباعه . اما ما كان يدفعه من ضرائب للمقرمين ، فصار يقوم بجبايتها ، جباة الدولة ، ولكن بنسب اعلى ، وكان قد أعفى الفلاح من الخدمة العسكرية ، في عهد المالك اما الان فقد أصبح الفلاح معرضا للتجنيد العسكري ومهددا بالخدمة لسنوات طويلة في الجيش الاقطاعي في ظل التدريب تحت السياط واخيرا لم يكن في سعته التصرف بحرية بمنتجاته ، اذ كان ملزما بتسليم القسم الاكبر منها الى محتكري الحكومة ، وذلك بأسعار منخفضة . » (٨)

ويشير الجبرتي ، مؤكدا تلك الحال التي آل اليها فلاحو مصر ايام حكم محمد علي ، الى انه في اكتوبر ١٨٠٧ م (٩) قرر الباشا ومعاونوه « فردة غلال وسمن وشعير وفول على البلاد والقرى . وان لم يجد المعينون للطلب

شيئاً من الدراهم عند الفلاحين أخذوا مواشيهم وأبقارهم ليأتي أربابها ويدفعوا ما تقرر عليهم ويأخذوها ، ويتركونها بالجوع والعطش . فعند ذلك يبيعونها على الجزارين ويرمونهم عليها قهراً بأقصى القيمة ، ويلزمونهم باحضار الثمن . . فان تراخوا وعجزوا ، شددوا عليهم بالحبس والضرب . « (١٠) .

ولقد كانت الطبقة والتحيز وعدم المساواة سمة تميز عصر محمد علي . ويضرب لنا مؤرخنا الجبرتي مثلاً في الطبقة والمحابة حيث يشير الى عملية فرض ضرائب المكوس (الجمر ك) فيقول : « ومنها أن ديوان المكس ببولاق — الذي يعبرون عنه بالكمر ك — لم يزل يتزايد فيه المتزايدون حتى أوصلوه الى ألف وخمسمائة كيس في السنة . وكان في زمن المصريين يؤدي من يلتزمه ثلاثين كيساً ، مع محابة الكثير من الناس ، والعفو عن كثير من البضائع لمن ينسب الى الامراء واصحاب الوجاهة من اهل العلم وغيرهم . فلا يتعرضون له ، ولو تحامى في بعض اتباعهم ولو بالكذب ، ويعاملون غيرهم بالرفق ، مع التجاوز الكثير ، ولا يفتشون المتاع ولا رباط الشيء المحزوم . . . بل على الصندوق أو المحزوم قد يسير معلوم . « (١١)

وتحتم علينا الرواية الموضوعية والدراسة الجادة لفكر عبد الرحمن الجبرتي ورؤاه ، الاجتماعية والسياسية الا نفعل تلك الظروف الخاصة التي صاحبت نشأة الرجل ، ذلك المؤرخ المصري الذي استطاع أن يقدم لنا صورة كاملة للمجتمع المصري خلال العصر العثماني بما فيه حكم المماليك والحكم الفرنسي فضلاً عن حكم محمد علي . والحق أن الجبرتي يعتبر أحد كبار المؤرخين في العالم الاسلامي في جميع أزمته ، وبالتأكيد هو أعظم المؤرخين العرب في الأزمنة الحديثة . (١٢)

ولد الجبرتي لاب ثري خلف له ميراثاً ضخماً مادياً وأدبياً ، حيث كان والده من أغنياء عصره فضلاً عن كونه عالماً من علماء الأزهر ذوي الشهرة والصيت . وقد كان منزله محراباً للباحثين والعلماء . ولقد ورث الشيخ عبد الرحمن هذا التراث برمته الامر الذي أضفى عليه مكانة بارزة في المجتمع القاهري ولا سيما من حيث صلاته الواسعة بأصحاب السلطان من الامراء والاجناد والتجار . وفي هذه البيئة العلمية — المترفة نوعاً ما — نشأ عبدالرحمن الجبرتي ، وتقدم الصفوف الاولى من علماء زمانه . (١٣)

ولا شك اننا في ضوء طبيعة البناء الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المصري آنذاك ، ومن خلال ما تكشف لنا عنه السيرة الذاتية لعبد الرحمن

الجبرتي من ظروف خاصة صاحبت نشأة الرجل وانعكست آثارها على حياته فيما بعد لا سيما في تلك المكانة الاجتماعية والعلمية التي اكتسبته وضعا خاصا بين أقرانه من أعضاء الهيئة العلمية ، نستطيع أن نكشف عن طبيعة الفكرين الاجتماعي والسياسي للجبرتي بشكل موضوعي وذلك من خلال قضيتي الدراسة المشار اليهما آنفا .

اولا : الجبرتي والسلطة الحاكمة

يعد الجبرتي من ذلك الطراز من المؤرخين الذين يعتبرون ظاهرة متميزة في وقت كانت فيه كتابة التاريخ كما يذهب الجبرتي نفسه من « شغل البطالين وأساطير الاولين » .

ولقد خلف لنا الجبرتي تراثا عظيما سجل فيه أحداث حقبة من أخصب حقب المجتمع المصري وأغزرها من حيث تشابك الاحداث وتعقد الحوادث .

ولا شك أنه رغم تميز الجبرتي وتفردته واتسامه بالموضوعية ، فان نظرتة للأمور كانت أحيانا تتلون بميوله الخاصة ، وما كانت تلك الميول الا نتاجا للظروف الموضوعية لمؤرخنا الكبير . ولعل من أهم تلك القضايا التي اختلطت فيها لدى الجبرتي الرؤية الذاتية بالرؤية الموضوعية هي تلك القضية الخاصة بموقفه من السلطة الحاكمة وتصوره عن طبيعة الحاكم العادل .

وموقف الجبرتي من السلطة الحاكمة في عصره ، موقف متأرجح بين تأييد ورفض . ولعل هذا التأرجح يرجع الى طبيعة السلطة في كل مرحلة من المراحل التي عاشها مؤرخنا الشيخ . الا أن هذا الموقف — أي موقفه من السلطة — تبدو عليه بعض السمات العامة لعل من أهمها رفضه للظلم وجبه وولعه الشديد بالعدالة وهو الامر الذي سيتضح جليا عندما نكشف عن موقف الجبرتي من محمد علي .

ولعل ولعه وجبه الشديد للعدالة هو الذي جعله يتخذ من المماليك موقفا متشددا ينم عن احتقار واستهجان لتصرفاتهم في الحكم والادارة ولا سيما فيما كانوا يمارسونه من ظلم وتعنت على أفراد الشعب . ويسرد لنا الجبرتي تلك القصة التي تبين مدى ظلم المماليك ومجملها « أن الشيخ الشرقاوي كانت له حصة في قرية بشرقية ببلييس ، حضر اليها أهلها وشكوا من محمد بك الالفي ، وذكروا ان اتباعه حضروا اليهم وظلموهم وطلبوا اليهم ما لا قدرة لهم عليه ، واستغاثوا بالشيخ فاغتاز وحضر الى الازهر وجمع المشايخ وقتلوا ابواب الجامع وذلك بعدما خاطب مراد بك وأمروا الناس بغلق الاسواق والحوانيت

ثم ركبوا في ثاني يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا الى بيت الشيخ السادات وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراهم ابراهيم بك . . فحضر اليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مراد بك ، فقالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها واحدثتموها . . . » (١٤)

نستشف من ذلك النص مدى الظلم اللاحق بفئات الشعب من قبل المماليك وعدم خنوع الشعب أو خضوعه لهذا الظلم ، بل قاومه ولم يهدأ الا بعد توقيع أول ميثاق يحدد علاقة الحاكم بالمحكوم وهو « الامر الذي دفع بعض المهتمين بالتاريخ ان يشبهوا هذه الحجة التي فرض عليها الباشا ووقع عليها ابراهيم ومراد بالمجانكارنا . » (١٥)

ولعل موقف الجبرتي من هذه الحادثة هو موقف المعارض للسلطة الملوكية والمؤيدة للشعب ، وهو الامر الذي تأكد أيضا من تعاطفه الشديد مع (ثورة) . . . أهالي الحسينية ضد ظلم أحد سناجق مراد بك في أواخر عام ١٧٨٥ . » (١٦) . فالظلم عنده أمر مستهجن لان « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، قيام ليلها ، وصيام نهارها » . (١٧) ، فاقامة الشريعة والرفق بالرعية هما من أهم الصفات التي يرى الجبرتي ضرورة توفرها لدى الحاكم العادل . (١٨) ، لذلك لا نجد غرابة في حملته الشديدة على المماليك . ورغم اتهام البعض له بأنه كان يحارب المماليك ولكن من بين صفوفهم ، حيث كان مملوكي الروح (١٩) ، فان موقفه بوجه عام من المماليك هو موقف المعارض المستهجن لتصرفاتهم وسوء ادارتهم وظلم حكمهم .

الا أن موقف الجبرتي من الحملة الفرنسية ومن السلطة الفرنسية الحاكمة موقف يتسم بالاعجاب الشديد والانبهار بمنجزاتهم وجبهم الشديد للعلم فضلا عن اعجابه بنظم الحكم التي ارسوها وفي اسلوب محاكماتهم الذي اتسم بالعدل لا سيما في محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر والتي يصفها الجبرتي وهو مأخوذ بنظامها واسلوب سير الاجراءات فيها .

الا أن الجبرتي رغم اعجابه هذا رأى في غزوهم لمصر اعتداء صارخا وتمنى انتهاء حكمهم ولكنه — كما يذهب الدكتور أحمد عزت عبد الكريم — « . . . لم يشارك في مقاومتهم أو الثورة عليهم ، بل لا نرى له — وهو من بين المتصدين من علماء تلك الايام موقفا يتسم بالمعارضة للفرنسيين كما نرى من الشرقاوي أو السادات مثلا . ولكن لا نذهب الى حد اتهام الجبرتي بالتعاون مع الفرنسيين . » (٢٠) .

ولكن في حقيقة الامر اذا كان الشيخ الجبرتي لم يشارك مشاركة ايجابية في مقاومة الفرنسيين او الثورة عليهم ، الا انه ظل دائما يندد ببعض مواقفهم التي اتسمت بالظلم وخاصة فيما كانوا يفرضونه من ضرائب باهظة وفي اوقات متقاربة بالقوة والقهر . وكان نصيب الحرفيين وصغار التجار والفلاحين من هذه الضرائب كبيرا ، بل ان هذه الطبقات بالذات كانت المنهل الذي كان ينهل منه الفرنسيون . ويروي لنا الجبرتي مؤكدا ما نذهب اليه انه « . . . في يوم السبت سادس عشر ، ارسلوا تنابية الى ارباب الحرف والصنائع يطلب دراهم وزعت عليهم مجموعها خمسمائة كيس ، فضج الناس وتكدروا ، ومع ما هم فيه من وقف الحال وغلاء الاسعار في كل شيء ، واصبحوا على ذلك يوم الاحد ، فلم يفتحوا الحوانيت ، وانتظروا ما يفعل بهم ، وحضر منهم طائفة الى الجامع الازهر ، ومر الاغا والوالي ينادون بالامان ، وفتح الدكاكين فلم يفتح منهم الا القليل وفيه وقعت معركة بسوق الصاغة بين بعض العسكر الذين ينحشرون في ايام الاسواق في الدلالين والباعاء ويعطلون عليهم دلاتهم وصناعاتهم ومعايشهم ، وضربوا على بعضها بالرصاص ، ففرغ الناس وحصلت كوشة وظن من لا يعلم الحقيقة من العسكر انها قومة ، فهربوا يمينا وشمالا وطلبوا النجاة والتساري . » (٢١) .

ويدلل الجبرتي في الرواية الآتية على بعض مواقف الفرنسيين التي اتسمت بالظلم والتعنت فيقول « فيه اشتد امر المطالبة بالمال ، وعين لذلك رجل نصراني قبطي سمي شكر الله ، فنزل بالناس ما لا يوصف ، فكان يدخل الى دار اي شخص كان لطلب المال وصحبته العسكر من فرنساوية والفعلة وبايديهم القرم ، فيأمرهم بهدم الدار ان لم يدفعوا المقرر وقت تاريخه من غير تأخير الى غير ذلك ، وخصوصا ما فعله ببولاك ، فانه كان يحبس الرجال مع الناس ويدخن عليهم بالقطن والمشاق ، ينوع عليهم العذاب ، ثم رجع الى مصر يفعل كذلك (وفيه) اغلقوا جميع الوكائل والخانات على حين غفلة في يوم واحد وختموا على جميعها ثم كانوا يفتحونها وينهبون ما فيها من جميع البضائع والاقمشة والعطر والدخان خانا بعد خان » . (٢٢)

ويؤكد الجبرتي ايضا على ظلم الفرنسيين وعدم امتثالهم للعدل فيما يروي انه حدث في شهر جمادي الثانية ١٢١٥ ان « حضر رجل الى الديوان مستغيثا بأهله وان فلق الفرنسيين قبض على ولده وحبسه عند قائمقام وهو رجل زيات وسبب ذلك ان امرأة جاءت اليه ، لتشتري سمنا فقال لها لم يكن عندي سم ، فكررت عليه حتى ضج منها ، فقالت له كأنك تدخره حتى تبيعه على العثملي ، تريد بذلك السخرية ، فقال لها نعم رغما عن انك وانك الفرنسيين ، فنقل عنه

مقاتله غلام كان معها حتى انهوه الى قاتلهم ، فأحضره وحبسه ويقول أبوه أخاف ان يقتلوه ، فقال الوكيل لا لا يقتل بهجرد هذا القول ولكن مطمئنا فان الفرنساوية لا يظلمون كل هذا الظلم ، فلما كان اليوم الثاني قتل ذلك ومعه أربعة لا يدري ذنبهم وذهبوا ليوم مضى . « (٢٣) » .

ولعل هذه الحوادث وغيرها هي التي دفعت الجبرتي ، رغم اعجابه ببعض منجزات الفرنسيين ، الى أن يتهمهم بالظلم (٢٤) ، وأن اعجابه بهم لم يتجاوز حد الاشادة بهذه المنجزات فضلا عن اعجابه ببعض المواقف التي يرى انها تتسم بالعدالة على نحو ما سوف نعرضه بعد ذلك . ويتضح موقفه هذا في تعليقه على ذلك البيان أو المنشور الأول لنابليون الذي قال فيه (انني ما قدمت لكم الا لكيما اخلص حقتكم من يد الظالمين) . ويعلق الجبرتي على هذه العبارة بقوله « هذه اول كذبة ابتدراها وغريه ابتكرها » . (٢٥) .

وما زال الجبرتي يروي لنا مظالم الفرنسيين فيذهب الى أنه بعد ثورة القاهرة الاولى قرر الفرنسيون فرضة وغرامة على العلماء والاهالي وقال العلماء « فاذا كان الامر كما ذكرتم ولا يخرج من يدكم كسكين الفتنة ولا غير ذلك ، فما فائدة رئاستكم ، وأي شئ يكون نفعكم ؟ وحينئذ لا يأتينا منكم الا الضرر ، لانكم اذا حضر اخصامنا قمتهم معهم وكنتم وايهاهم علينا فكان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع اهل بولاق من قتلتم عن آخركم وحرق بلدكم وسببى حريمكم واولادكم ، ولكن حيث اعطيناكم الامان فلا ننقض اماننا ولا نقتلكم وانما نأخذ منكم الاموال . فالمطلوب منكم عشرة آلاف الف فرنك ، عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة يكون فيها الف الف فرانك عنها خمس عشرة خزنة رومي بثلاث عشرة خزنة مصري ، منها خمسمائة على مائتين على الشيخ السادات خاصة من ذلك خمسمائة وخمسة وثلاثون ايضا ، والشيخ محمد بن الجوهري خمسون الفا ، واخيه الشيخ فتوح خمسون الفا ، والشيخ مصطفى الصاوي خمسون الفا والشيخ العناني مائتان وخمسون الفا ، من ذلك نظير نهب دور الفارين مع العثملي ، مثل المحروقي والشيخ عمر مكرم وحسين اغاشن . وما بقي تدبرون رأيكم فيه وتوزعونه على اهل البلد وتتركون ، عندنا منكم خمسة عشر شخصا . انظروا من يكون فيكم رهينة عندنا حتى تغلقوا ذلك المبلغ . » (٢٦)

ولم يسلم من هذه الغرامة فرد أو طبقة أو طائفة حيث وزعت على « . . . » الملتزمين واصحاب الحرف ، وحتى على الحواة والقرديات ، والمحبطين والتجار واهل الغورية وخان الخليلي والصاغة والنحاسين والدلالين والقباتية وقضاة المحاكم وغيرهم وكل طائفة مبلغ له صورة مثل ثلاثين الف فرانك وأربعين

الف . كذلك يباعو التبناك والدخان والصابون ، والخردجية والعطارون والزياتون والشواؤن والجزارون والمزينون وجميع الصنائع والحرف . « (٢٧)

الا ان مؤرخنا الشيخ رغم سخطة الشديد على تلك المظالم التي ارتكبها الفرنسيون تجاه فئات الشعب المصري ، يحمد لهم بعض المواقف . ففضلا عن الموقف الخاص بمحاكمة سليمان الحلبي وانهاره بسير المحاكمة ونظامها ، فانه يذكر لنا حادثة أخرى تشير الى امتثال الفرنسيين في بعض المواقف الى العدل وتدلل من جهة أخرى على الموضوعية النسبية التي اتسمت بها روايات الجبرتي ، فيقول الجبرتي انه في ٣٠ يونيو سنة ١٨٠١ (٢٨) ، حدث أن « . . . شنق الفرنسيواة شخصا منهم على شجرة ببركة الازبكية قيل انه سرق . » (٢٩)

فالجبرتي اذن لم يكن يملك الا القلم لكنه يعبر به عن سخطة وعدم رضائه عن الحكم الفرنسي بوجه عام . وقد يرجع السبب في هذا الى تخوفه مما قد يسببه له هذا السلوك الايجابي ضد الفرنسيين من بعض الاضرار الخاصة ، فآثر السلامة نظرا لما يتمتع به من مكانة خاصة في المجتمع اورثه اياه والده . هذا فضلا عما آل اليه مصير غيره من العلماء الذين عارضوا الحكم الفرنسي علنا كالشيخ السادات مثلا الذي سجن كرهينة لدى الفرنسيين حتى يدفع المشايخ قدرا معيناً من المال كعقاب لهم وللمصريين على ما صدر منهم اثناء ثورة القاهرة الاولى .

ولعل هذا السلوك المحافظ من قبل الجبرتي تجاه الحكم الفرنسي ، الذي يضر في طبياته اعجابا بمنجزاتهم المادية والعلمية ونفورا من سلوكهم تجاه الشعب وظلمهم اياه ، كان نتاجا لتلك الثقافة التي عاش في ظلها الرجل ، « . . . سواء تلك التي جناها على يد والده او من خلال دراسته او اشتغاله بالتاريخ الى جانب الخبرة والتجربة اللتين كسبهما من حياته العامة والخاصة أن صارت للشيخ فكرة محددة في اصول الدولة والسياسة شكلت موقفه من الحوادث التي شهداها وتأثرت بها الاحكام التي أصدرها على المسؤولين في عهده . » (٣٠)

الا انه مما يحير بالنسبة للجبرتي انه لم يذكر اسمه من بين تلك الاسماء التي تكون منها أول ديوان انشاء نابليون في مصر وهو أمر اكده كثير من الباحثين والمؤرخين (٣١) . فيشير الجبرتي الى أنه لما اجتمع نابليون مع مندوبين من العلماء والمشايخ قال لهم « . . . أننا ما حضرنا الا بقصد ازالة الممالك الذين يستعملون الفرنسيواة بالذل والاحتقار ، واخذوا مال التجار ومال السلطان

... واما المشايخ والعلماء واصحاب المرتبات والرعية ، فيكونوا مطمئنين ،
وفي مساكنهم متاجرين ومرتاحين » الى آخر ما ذكرناه . ثم قال نابليون لهم :
« لازم ان المشايخ والشرابجية يأتون الينا لترتب معهم ديوانا ننتخبه من
سبعة اشخاص عقلاء يدبرون الامر » .

ثم يشير عبد الرحمن الجبرتي الى تلك العناصر التي تكون منها هذا الديوان
والتي انحصرت في العلماء والمشايخ : « وفي يوم الخميس ثالث عشر من صفر
طلبوا المشايخ والوجاتلية عند بعض رؤسائهم وعينوا عشرة من انفار المشايخ
لليديوان وهم الشيخ عبد الله الشرقاوي ، والشيخ خليل البكري والشيخ
مصطفى الصاوي ، والشيخ سليمان الفيومي ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ
موسى السرسى ، والسيد مصطفى الدمنهوري ، والشيخ احمد العريشى ،
والشيخ يوسف بك كتحدا الباشا والقاضي وعملوا محمد اغا المسلماني اغاة
مستحفظان ، وعلي اغا الشعراوي زعيم مصر ، وحسن اغا محرم أمين
احتساب ، وذلك باشارة ارباب الديوان ، فانهم كانوا من تقليد المناصب لجنس
الممالك ، فعرفوهم ان سوقة مصر لا يخافون الا الاتراك ولا يحكمهم سواهم ،
وهؤلاء الجماعة من ارباب البيوت القديمة . » (٣٢)

ولسنا ندري السبب في تجاهل الجبرتي لاسمه حين ذكر اسماء اعضاء
الديوان ، هل هو خوف من حكم التاريخ عليه باعتباره متعاوناً مع الفرنسيين ،
أم هو دليل على عدم رضاه عن الديوان أو عن فكرة التعاون مع الفرنسيين
على الاطلاق ايا كان مستوى التعاون معهم ، رغم ان هذا الديوان كان يعد
نواة لنظام شورى « ... لم تكن تعرفه البلاد من قبل ولا سيما اذا لاحظنا انه
وضع سنة ١٧٩٨ في اواخر القرن الثامن عشر ، ففي ذلك الحين لم يكن النظام
الدستوري مألوفاً في الشرق . بل كان الحكم المطلق القائم على الظلم والاستبداد
واهواء لحكام هو السائد في بلاد الشرق قاطبة . » (٣٣)

ثم كان موقفه من محمد علي ، وهو موقف يتسم في عمومته بالمعارضة
الشديدة ، الا انه مع ذلك لم يستطع الا ان يشيد بمحمد علي وخاصة فيما
اتصف به من ذكاء ودهاء لدرجة انه قد اشار بأن لمحمد علي مندوحة لم تكن
لغيره من ملوك هذا الزمان . ولكن مفتاح فهم علاقة الجبرتي بمحمد علي يكمن
في تصوري فيما اشار اليه الجبرتي من أن محمد علي لو « وفقه الله ن شيء من
العدالة ، على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطالبة لكان
اعجوبة زمانه وفريد اوانه » .

فالظلم اذن وفقدان العدالة كانا سببا في ذلك الموقف المتشدد الذي وقفه الجبرتي من حكم محمد علي ، رغم ما قدمه الاخير لمصر من افضال لم يستطع انكارها عبد الرحمن الجبرتي نفسه ويتضح ذلك حين « بنى محمد علي حائطين في رشيد على يمين البوغاز وشماله ينحصر بينهما الماء فلا تطفئ الرمال وقت ضعف النيل بحيث تعطب المراكب وتلف اموال المسافرين اكبره الجبرتي ووصف ما قام به بانه (من اعظم الهمم الملوكية التي لم يسبق لهاها) » (٣٤) .

واذا كان الجبرتي ينتمي الى فئة متميزة في المجتمع ، هي فئة العلماء ، الى جانب غناه وتميزه الاجتماعي والاقتصادي ، وهو الامر الذي جعل البعض يعزو السبب في موقف الجبرتي المتشدد من محمد علي الى ان الاجراءات التي اتخذها سواء اكانت اقتصادية او اجتماعية قد مسته شخصا ومست الطبقة التي ينتمي اليها ، الا انه مع ذلك لم يقف هذا الموقف المعارض من محمد علي كنتيجة لما اصاب طبقته او هو شخصا من اجراءات محمد علي ، او ضيقه بأسلوب محمد علي في التفريق بين العلماء وفنكه بالماليك عام ١٨١١ فحسب وانما ايضا لما اصاب الطبقات الاخرى في المجتمع لا سيما الطبقات الكادحة كالفلاحين والحرفيين وصغار التجار . فهو يسوق لنا مثلا على مدى الظلم والقهر الذي عاشر في ظله الفلاح المصري ابان حكم محمد علي ، فيقول « ... وفي اثناء ذلك : قرروا ايضا فردة غلال وسمن وشعير وفول على البلاد والقرى . وان لم يجد المعينون للطلب شيئا من الدراهم عند الفلاحين اخذوا مواشيهم باحضار الثمن فان تراخوا او عجزوا ، شددوا عليهم بالحبس والضرب » . (٢٥)

ويدلل الجبرتي على مدى تعنت جند محمد علي وظلمهم فيقول انهم « ... زادوا في الطنبور نغمات ، وهو انهم صاروا يتتبعون اولاد البلد ، وارباب الصنائع الذين لهم نسبة قديمة بالقرى ، وذلك باغراء اتباعهم واعوانهم ، فيكون الشخص جالسا في حانوته وصناعته فما يشعر الا والاعوان محيطون به ويطلبونه الى مخدومهم . فان امتنع او التكا ، سحبوه بالقهر وادخلوه الى الحبس ، وهو لا يعرف له دينا . فيقول « وما ذنبي ؟ » ، فيقال له : « عليك مال الطين » ، فيقول : « واي شيء يكون الطين ؟ » ، فيقولون له « طين فلاحتك من مدة سنين لم تدفعه ، وقدره كذا وكذا ، فيقال له : الست فلانا الشبراوي او النياوي مثلا » ، فيقول لهم « هذه نسبة قديمة سرت الي من عمي او خالي او جدي »

فلا يقبل منه ، ويحبس ويضرب حتى يدفع ما الزموه به ، او يحدد شافعا
يصالح عليه . وقد وقع ذلك لكثير من المتسببين والتجار وصناع الحرير
وغيرهم » . (٣٦)

ونحن بذلك لا نجد ذلك التعالي الفكري او الطبقي لدى الجبرتي ، او لا
نجد فيه تلك البورجوازية الفكرية او الاقتصادية (٣٧) ، التي جعلته يقف من
أحداث عصره موقفا تمليه عليه هذه الانتماءات الفكرية والاقتصادية فهو في
الوقت الذي يعيب فيه محمد علي ومعاونيه اجراءاتهم التي أصابت فئة العلماء
والمثزمين ينعي عليه أيضا اجراءاته التعسفية ضد الفلاحين والحرفيين وصغار
التجار . ولعل ما ساقته لنا الجبرتي وما سوف يسوقه لنا ويضربه لنا من أمثال
يجعلنا لا نتفق كثيرا مع ما ذكره محمود متولي من أن قاريء الجبرتي يستطيع
أن يستخلص « انه كان بورجوازي التفكير حيث تظهر اهتماماته
بالكتابة عن الطبقة الراقية والاعيان أكثر من الاهتمام بالعمامة والذين لم يغفل
في ذكر احداثهم » (٣٨) ، الا أن متولي يذهب في نص آخر الى أن الجبرتي رغم
كونه بورجوازيا الا أنه كان « غير مستقل ومتعاطف وان كان يستنكف
بعض تصرفات الرعاع الا ان ذلك لم يمنعه من الدفاع عنهم أمام ظلم الحاكم
وجبروته في كتاباته . » (٣٩) ، فمتولي هنا رغم تقريره بأن الجبرتي قد اهتم
بالطبقة الراقية (٤٠) ، من حيث الكتابة والتأريخ الا أنه لم يستطع انكار
تعاطفه مع العمامة ووقوفه منهم ضد الحكام .

ولم يكن الجبرتي بظالم لمحمد علي فهو يقرر ما هو واقع من حوادث
ووقائع تشهد جلها بظلم الحاكم ومعاونيه ، فيذهب الى أن تخذا الباشا كسان
« ... يتنوع في استجلاب الاموال ويتحايل في استخراجها بأنواع من الحيل
فمنها : » أنه يرسل الى اهل حرفة من الحرف ، ويأمرهم ببيع بضاعتهم
بنصف ثمنها ، ويظهر أنه يريد الشفقة والرافة بالناس ، ويرخص لهم في أسعار
المبيعات ، وان أرباب الحرف تعدوا الحدود في غلاء الاسعار . فيجتمع اهل
الحرفة ويضجون ، ويأتون بدفاترهم وبيان رأس مالهم ، وما ينضاف اليه من
غلو الأجر في البحر والبر فلا يسمع لقولهم ، ولا يقبل لهم عذرا ، ويأمر
بهم الى الحبس . فعند ذلك يطلبون الخلاص ويصلحون على أنفسهم بقدر من
المال يدفعونه ويوزعون ذلك على أفرادهم فيما بينهم . ثم يزدون في سعر تلك
البضاعة ليعوضوا غرامتهم من الناس . . . معتذرين بتلك الغرامة وما حل
بهم من الخسارة ، ثم تستمر الزيادة على الدوام » . (٤١) .

فالحرفيون وصغار التجار والفلاحون كانوا من أكثر طبقات المجتمع
تعرضا للظلم والاضطهاد ، ولنا في حال الفلاح خير مثل على ما نذهب اليه .

فالسفرة والتجنيد بالقهر فضلا عن الغرض الجزافي للضرائب كلها امور جعلت من الفلاح المصري آنذاك ضحية لظلم الحاكم وتعنته .

ويدلل لنا اليوزباشي نورمان في كتاب له طبع في آذار / مارس ١٩٠٢ عن نظام الجندية واسلوب التجنيد أيام حكم محمد علي : « وكنت أرى جماعاتهم تمر بي كل يوم ، وأنا جالسا الى قهوة تحت داري بحي الازبكية ، في رتل طويل يسوقه الباشا بوزوف الى القشلاقات سوق السائفة ، منظرهم يفتت الاكباد ، فقد انتزعوا عنوة من بين أهليهم ، ومن بين أحضان الحرية ، يسرون مثنى ، مثنى ، مريوطين برقابهم الى حبل من مسلة ، يمتد على طول الرتل ، فتية ترتسم على وجوههم وفي أجسامهم العجاف آثار التعب والجوع لا تكاد تستر عورتهم أسمال قدرة كانت فيها مضى هدوما زرقا » . (٤٢) .

فلم يكن الجبرتي في هذا متجنيا على محمد علي فما هو اليوزباشي نورمان يؤكد تلك الحال التي آل اليها الفلاح المصري ، وما هو ادوارد لين الذي عاصر عهد محمد علي يحكي لنا قصة الفلاح الذي قابل الباشا وهو في طريق عودته من الاسكندرية الى القاهرة فشكا له فقره وسوء حاله فأصدر محمد علي أمره بأن على أغنى رجل في القرية ان يعطيه بقرة يعيش منها . فيتهكم لين على محمد علي ويقول ها هي العدالة كما يفهمها الباشا ، يحسن الى فقيره ليس من ماله الخاص وانما من مال غيره . (٤٣) ، ويشير لنا لين أيضا الى ما كان يتمتع به محمد علي من سلطة مطلقة ، حيث كان من حقه أن يقتل من يشاء من رعيته دون محاكمة ودون ابداء السبب ، « واذا أشار بيده بحركة أفقية أطاح السيف برأس من يريد » . (٤٤)

فاذا كانت نشأة الجبرتي وانتعاشاته الفكرية والطبقية قد انعكست آثارها على موقفه من محمد علي نظرا لما أصابه وأصاب طبiquته من ضرر سببته لهم إجراءاته الاقتصادية ، فهل كان لادوارد لين واليوزباشي نورمان وغيرهما مصلحة في اتخاذ هذا الموقف من محمد علي وطبيعة نظام الحكم الذي كان سائدا آنذاك ؟ .

ويعزو البعض السبب في ذلك الموقف الذي اتخذته الجبرتي من محمد علي الى انه لم يدرك طبيعة التغير الذي أحدثه ، وانه راح « يقيس الامور بمقياس الاخلاق وحدها ، دون أن يقدر كنه التغير أو دواعيه وبواعثه والحق ان الجبرتي عاش من حكم محمد علي سنواته العشرين الاولى ، وهي السنوات التي شغل فيها محمد علي بتحطيم مقومات البناء القديم ليبنى بناء الجديد . وسنوات الهدم دائما يشوبها العنف والقسوة والمصادرة .

وهذه كلها أمور سجلها الجبرتي ناقدا ساخطا وان لم يسع لما وراءها من قصد » . (٤٥)

والحقيقة ان هذه القضية — قضية عدم ادراك الجبرتي لطبيعة التغير الذي أحدثه محمد علي — بحاجة الى مناقشة . فالواقع انه ليس دفاعا عن الجبرتي ان نقول ان فهم طبيعة علاقته بمحمد علي يكمن في معنى العدالة كما يفهمه الجبرتي وهو عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، قيام ليلا وصيام نهارا . وهنا تلعب نشأته الدينية دورا في تحديد هذا المعنى ، كذلك تأكيد على ان سبب هلاك الحاكم هو (اطراح ذوي الفضائل ، واصطناع ذوي الرذائل والاستخفاف بعظمة الناصح ، والاغترار بتزكية المادح) ، فاذا كان هذا هو تصور الجبرتي للعدالة وللحاكم العادل فلا غرابة اذن اذا اتخذ الجبرتي هذا الموقف المتشدد من محمد علي . ثم من قال ان الجبرتي لم يدرك طبيعة التغير الذي أحدثه محمد علي . لقد شعر الجبرتي ان لهذا الحاكم — وهذا حق — ملكات وخصائص لم تتوفر لغيره من الحكام ، وانه كثيرا ما كان يشيد به — كما أشرنا — فلقد وصف أحد الاعمال التي قام بها بأنها من أعظم الهمم الملوكية لم يسبق لمثلها وبأن له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان .

ولم يكن الجبرتي منافقا حين قال عن محمد علي انه لو وفقه الله بشيء من العدالة ، على ما فيه من الحزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطالبة لكان اعجوبة زمانه وفريد أوانه .

ولكن على أية حال فانه رغم الموضوعية النسبية التي تميزت بها كتابات الجبرتي الا اننا لا نستطيع وفقا لما يتيح لنا مناهج البحث في سسيولوجيا المعرفة ان نسلخ مواقف الجبرتي ، وآرائه وتصوراته المختلفة لعلاقته بالسلطة الحاكمة في أيامه عن طبيعة الثقافة التي عاش في ظلها وطبيعة العصر الذي ينتمي اليه حيث عاش الجبرتي فترة قلقة من تاريخ مصر منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى العشرينات من القرن التاسع عشر .

فاختلاط النظرة الموضوعية بالنظرة الذاتية في حكمه على الامور امر غير منكور وان كنا لا نستطيع تحميل ميوله واتجاهاته ونظرته الذاتية بوجه عام أكثر مما تحتمل نظرا لما يؤكد لنا التاريخ ومن مصادر أخرى غير الجبرتي من ان حكم الجبرتي على طبيعة السلطة في عصره لم يبعد كثيرا عن الموضوعية .

ثانيا : الجبرتي والثورة

اذا كان لعبد الرحمن الجبرتي ذلك الشيخ صاحب تلك المكانة الاجتماعية

المرموقة ، وذلك الوضع العلمي المتميز ، موقف خاص من فكرة الثورة ، فان هذا الموقف لم يتسم بالثبات ، فهو تارة مؤيد أشد ما يكون التأيد ، وتارة أخرى متحفظ الى حد الاستنكار . والثورة كما ننعنيها هنا هي تلك الانتفاضات التي تقوم بها غالبية فئات الشعب تعبيرا عن السخط وعدم الرضا عن ظلم الحاكم وتمنته . ولا شك أن تعدد مواقف الجبرتي من الثورة والثوار يرجع في حقيقة الامر الى طبيعة كل ثورة وأسبابها ، فضلا عما تميز به الجبرتي من محافظة شديدة وكراهية للعنف .

والحقيقة أن الجبرتي قد أيد بشكل لافت ثورة أهالي الحسينية (١٧٨٥) وتلك الثورة (١٧٩٥) التي أرغمت الوالي والماليك على كتابة وثيقة أو حجة تبين الحقوق والواجبات بين الحاكم والرعية . وفيها ذهبوا الى بيت الشيخ السادات « وأزدهم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراهم ابراهيم بك . . . فحضر اليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم ، فقالوا له نريد العذل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث ، والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها والامر يكون بالاعطاء لا بالأخذ . . . وانفض المجلس وركب المشايخ الى الجامع الأزهر واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وياتوا بالمسجد » (٤٦)

فالملاحظ أن الجبرتي وإن لم يشترك فعليا في هذه الثورة ، إلا أنه لم يستنكرها ، بل نلاحظ تعاطفه معها ومع الأهالي أو العامة أو الرعية كما يسميهم . إلا أننا نجد بعد ذلك موقفا يتسم بالمحافظة أن لم يكن الاستنكار وهو الخاص بثورتي القاهرة الاولى والثانية . ويشير الجبرتي الى حوادث ثوره القاهرة الاولى تلك التي اندلعت لأسباب اقتصادية في المحل الاول وهي فرض الضرائب الجزافية على فقراء الشعب وطبقاته الدنيا فيقول :

« وفي يوم السبت عاشر جمادي الاولى عملوا الديوان وأحضروا قائمة مقررات الاملاك والعقار ، فجعلوا الاعلى ثمانية فرانة والوسط ستة ، والادنى ثلاثة ، ومن كان أجرته اقل من ريال في الشهر فهو معاف . وأما الوكاييل والخانات والجماعات والمعاصر والسراج والخوانيت فمنها جعلوا عليه ثلاثين وأربعين ، وكل شيء بحسابه . وكتبوا بذلك مناشير على عاداتهم ولصقوها بالمفارق وأرسلوا منها نسخا للاعيان ولما اشييع ذلك في الناس كثر لغظهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء ، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك ووافقتهم في ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عواقب الامور ، ولم

يتفكر انه في القبض مأسور ، وإن الملاعين الكفار ، مالكون القلاع والاسوار ، ويحصنون الجميع بالآلات الحرب المنيع ، فتجتمع الكثير الفوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم » . (٤٧)

ثم يسرد لنا الجبرتي حوادث الثورة بعد ذلك قائلا : « وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكناج . وحضر السيد بدره وصحبته حشرات الحسينية ، وزعر الحارات البرانية ، ولها هياج عظيم وهول جسيم . ويقولون بصياح الكلام . نصر الله دين الاسلام . فذهبوا الى بيت قاضي عسكر وبه من سبقهم عن على شاكلتهم نحو الالف واكثر ، فخاف القاضي العاقبة وأغلق ابوابه وأوقف حجابيه ، فرجموه بالحجارة والطوب . وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب . وكذلك اجتمع بالجامع الازهر — العالم الاكبر — وفي ذلك الوقت حضر اللعين « دبوي » بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع الغورية ، وعطف على خط الصنادقية ، وذهب الى بيت الشرتاوي فلم يجده ، فذهب الى بيت القاضي فوجد ذلك الزحام ، فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وتلك الاخطاط بالخلائق مزحومة ، فبادروا اليه وضربوه واثخنوا جراحاته وقتلوه وقتلوا الكثير من الفرنسيين ، وأبطاله وشجعانه ، وذهبوا الى السعير وبئس المصير » . (٤٨)

فالملاحظ ان موقف الجبرتي من ثورات ما قبل الحملة الفرنسية وتلك التي حدثت أثناءها ، موقف يتسم بتأييد الاولى والتحفظ في الثانية . والدليل على ذلك تسميته لثوار ما قبل الحملة الفرنسية بالعامية أو الرعية وهي تسمية طيبة اذا قارناها بتسميته لثوار فترة الحملة الفرنسية بالحشرات والزعمر .

ولكننا في الواقع اذا ما تساطنا عن السبب في اختلاف موقف الجبرتي من الثورة والثوار ، فانه الى جانب النشأة المحافظة للجبرتي ، فقد رأى في هذه الثورة مخاطرة شديدة نظرا لما يملكه الفرنسيون من عداد القهر والحرب ومقاومة أي تمرد وهو الامر الذي يتيح لهم تفوقهم العلمي وينبغي الا ننسى انبهار الجبرتي بتفوقهم هذا . فالاستنكار هنا ليس استنكار الرافض للتمرد على الظلم وانما هو استنكار الخائف على العامة والدليل على ذلك قوله على أحد المتعممين الذين أيدوا الثورة والثوار انه « لم ينظر في عواقب الامور ، ولم يتفكر انه في القبض مأسور ، وإن الملاعين الكفار ، مالكون القلاع والاسوار ، ويحصنون الجميع بالآلات الحرب المنيع » . (٤٩)

فالنزعة المحافظة لدى الجبرتي ، وانبهاره بعلم الفرنسيين وخوفه على العامة من استخدام الفرنسيين لعلمهم هذا في مقاومتهم وهو الامر الذي حدث

بالفعل ، كانت من بين الدوافع التي جعلت مؤرخنا يقف هذا الموقف من ثورات فترة الحملة الفرنسية .

واخيرا ، اذا كان الجبرتي ذلك المؤرخ الذي انفرد بالكتابة عن تاريخ مصر خلال هذه الحقبة الزمنية الحية التي حفلت بأحداث متميزة عملت على تغيير مجريات الامور في مصر قد اراد أن يكون موضوعيا ، فإن موضوعيته هذه قد تلونت الى حد ما بنظراته الذاتية للامور ، تلك النظرة التي تعد نتاجا لطبيعة ثقافته ونوعية البيئة الاجتماعية والعلمية التي كان ينتمي اليها ، فضلا عن طبيعة البناء الاجتماعي والاقتصادي الذي عاش في ظله الرجل . الا أنه من العسير علينا أن نذهب الى حد تأكيد غلبة هذه النظرة الذاتية في كل ما كتب .

والنظرة الذاتية — وفقا لما يتيح لنا علم اجتماع المعرفة — أمر ليس من السهل تجنبه . فالباحث — أي باحث — لا يستطيع أن يسلم نفسه عن الظاهرة التي يعني بدراستها ، فما بالنا بمؤرخ عاش أحداثا معينة ، وله ميول خاصة وثقافة متميزة ليس من السهل عليه أن يصدر أحكامه أو يصف ما يشاهد ويقرر ما هو كائن دون أن يكون لنظراته الذاتية نصيب في هذا . والسؤال هنا هو : الى أي حد تستطيع الرؤية الموضوعية أن تكبح جماح النظرة الذاتية للامور بحيث لا تترك لها السيادة والغلبة ؟

واعتقد ان هذا ما استطاع أن ينجح فيه بمهارة مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي .

الهوامش

- (١) انظر : محمد محمود السروجي ، « عجائب الآثار ومظهر التنديس ، دراسة مقارنة » ، مجلة الكتائب ، السنة الرابعة عشرة ، العدد ١٥٨ ، ايار/مايو ١٩٧٤ ، ص ٢ .
- (٢) السيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ الحديث من الفتح العثماني الى الاحتلال البريطاني — ١٥١٧ — ١٨٨٢ ، ص ٢٠ .
- (٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، ثورة شعب ، عرض للحركة الوطنية في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين مع دراسة تفصيلية لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ،
- (٤) عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، الجزء الاول ، طبعة بيروت ، ص ص ٤٠-٤١ .
- (٥) احمد عبد الرحيم مصطفى ، الارض والفلاح في عصر محمد علي ، الجمعية المصرية .
- (٦) Issawi, Charles, Egypt : An Economic And Social Analysis, Oxford Univ. Press, London, 1947.

- (٧) هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر ، ص ١٥٠ .
- (٨) لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ص ٧٠ .
- (٩) لم يستخدم الجبرتي التقويم الميلادي .
- (١٠) عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ الجبرتي ، كتاب الشعب رقم ٤٠ ، الجزء السابع ، ص ٧٤٣ .
- (١١) عبد الرحمن الجبرتي ، المصدر نفسه ، ص ٧٧ .
- (١٢) انظر : محمد انيس ، « الجبرتي ومكانته في مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الرحمن الجبرتي وعصره : بمناسبة انتضاء ١٥٠ عاما على وفاته (١٦-٢٢ ابريل ١٩٧٤) » ص ١٥ .
- (١٣) انظر : احمد عزت عبد الكريم ، الجبرتي مؤرخ مصري على مفرد الطرق ، في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الرحمن الجبرتي وعصره : بمناسبة انتضاء ١٥٠ عاما على وفاته (١٦-٢٣ ابريل ١٩٧٤) ، ص ٤ .
- (١٤) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٨ .
- (١٥) لويس عوض ، تاريخ الفكري المصري الحديث ، الخلفية التاريخية ، ص ٦٣ .
- (١٦) عبد الخالق محمد لاشين ، الفكر السياسي عند الجبرتي ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الرحمن الجبرتي وعصره ، بمناسبة انتضاء ١٥٠ عاما على وفاته ، ص ٤ .
- (١٧) ذكر الجبرتي هذا الحديث الذي رواه ابو هريرة في مقدمة عجائب الآثار حين بدأ في ذكر صفات الحاكم العادل .
- (١٨) انظر : احمد عبد الرحيم مصطفى ، الجبرتي مؤرخا ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الرحمن الجبرتي وعصره ، بمناسبة انتضاء ١٥٠ عاما على وفاته (١٦-٢٣ ابريل ١٩٧٤) ، ص ٧ .
- (١٩) صلاح عيسى ، عبد الرحمن الجبرتي ، مؤرخ في ميزان المؤرخين ، مجلة الكاتب ، السنة الرابعة عشرة ، مايو ١٩٧٤ ، العدد ١٥٨ ، ص ٣٥ .
- (٢٠) احمد عزت عبد الكريم ، الجبرتي مؤرخ مصري على مفرد الطرق ، مرجع سابق ، ص ٨ .
- (٢١) عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، الجزء الثاني ، طبعة بيروت ، ص ص ٦-٧ .
- (٢٢) عبد الرحمن الجبرتي ، الجزء الثالث من التاريخ المسمى عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، طبعة قديمة ، لم يذكر اسم الناشر ، ص ص ١٣٥-١٣٦ .
- (٢٣) عبد الرحمن الجبرتي ، نفس المرجع ، ص ١٣٦ .
- (٢٤) ما هذا اعجاب الجبرتي بطريقة محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر .

- (٢٥) عبد الرحمن الجبرتي ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ، ص ٦١ .
- (٢٦) عبد الرحمن الجبرتي عجائب الآثار (المختار من تاريخ الجبرتي) ، كتاب الشعب ، ص ٣٦٥ — ٣٣٦ .
- (٢٧) عبد الرحمن الجبرتي ، نفس المرجع ، ص ٣٦٧ .
- (٢٨) لم يستخدم الجبرتي التقويم الميلادي .
- (٢٩) عبد الرحمن الجبرتي ، نفس المرجع ، ص ٤٤١ .
- (٣٠) عبد الخالق محمد لاشين ، الفكر السياسي عند الجبرتي ، مرجع سابق ، ص ٢ .
- (٣١) انظر مجموعة الدراسات الخاصة ببنو دولة الرهين الجبرتي وعصره ، بمناسبة انقضاء ١٥٠ عاماً على وفاته ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- (٣٢) عبد الرحمن الجبرتي ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ، ص ٧٢ .
- (٣٣) عبد الرحمن الرامعي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، ص ١٥١ .
- (٣٤) احمد عبد الرحيم مصطفى ، الجبرتي مؤرخاً ، مرجع سابق ، ص ١٢ .
- (٣٥) عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ الجبرتي ، كتاب الشعب رقم ٤٠ ، الجزء السابع ، ص ٧٤٣ .
- (٣٦) عبد الرحمن الجبرتي ، المصدر نفسه
- (٣٧) انظر محمود متولي ، « الجبرتي والبرجوازية الصغيرة » ، مجلة الكاتب ، السنة الرابعة عشرة ، مايو ١٩٧٤ ، العدد ١٥٨ ، ص ٣٧ .
- (٣٨) محمود متولي ، المرجع نفسه ، ص ٤٧ .
- (٤٩) محمود متولي ، المرجع نفسه ، ص ٣٧ .
- (٤٠) الواقع ان هذا الامر اختلف بشأنه الباحثون . ففي الوقت الذي يؤكد فيه الدكتور محمود متولي اهتمام الجبرتي بالكتابة عن الطبقة الراقية التي كان ينتمي اليها ، يؤكد الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى من جانب آخر على ان الجبرتي لم يقصر اهتمامه على طبقة القوم والاحداث الهامة فقد عنى بالاجور الجليلة والحقيرة . (انظر احمد عبد الرحيم مصطفى ، الجبرتي مؤرخاً ، مرجع سابق) .
- (٤١) عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ الجبرتي ، كتاب الشعب رقم ٤٠ ، الجزء السابع ، ص ٨١٦ .
- (٤٢) نقلاً من حسين نوزي ، سنباط مصري : جولات في رحاب التاريخ ، ص ٩٥ .
- (٤٣) انظر ادوارد وليام لين ، انجليزي يتحدث عن مصر ، من كتاب المصريون المهملون : شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة لاطمة محبوب ، ص ٧٧ .
- (٤٤) ادوارد لين ، المرجع نفسه ، ص ١٢ .
- (٤٥) احمد عزت عبد الكريم ، الجبرتي مؤرخ مصر على طريق الطرق ، مرجع سابق ، ص ١١ — ١٢ .
- (٤٦) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار — الجزء الثالث ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .
- (٤٧) عبد الرحمن الجبرتي ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ، الجزء الاول ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .
- (٤٨) عبد الرحمن الجبرتي ، نفس المرجع ، ص ١٢٥ .
- (٤٩) عبد الرحمن الجبرتي ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ، الجزء الاول ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .